# الهروب من جنة أدم

بقلم

**عبير السيد**

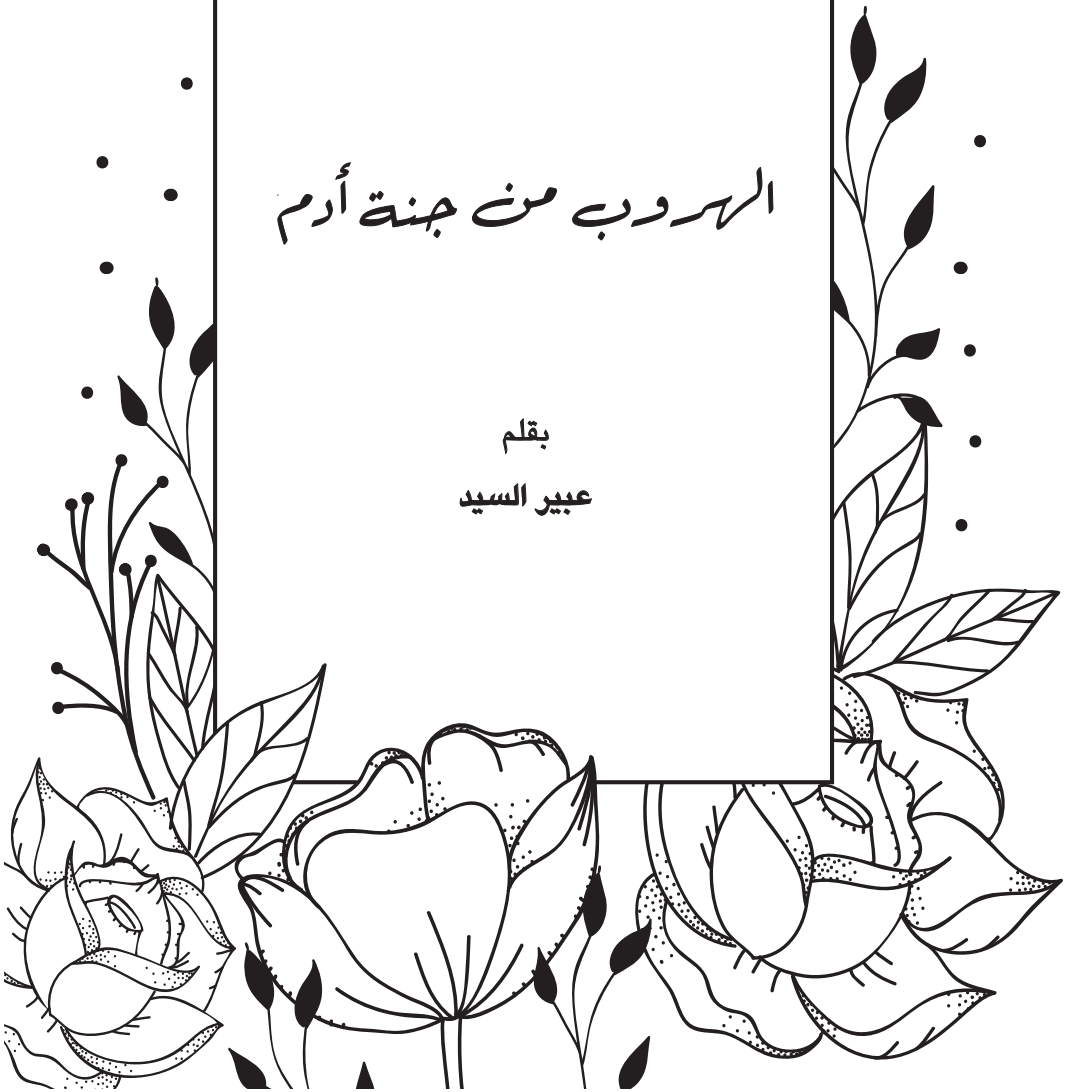

رأيتها لأول مرة أمام باب المركز الإسلامي في فلورنس العتيقة. ذلك المكان المعطر بعبق المباني القديمة التي تعود إلى عائلة الميديشي.. ومن منا لم يقرأ عن لورينزو المانيفيكو وكوزيمو، فهي من أهم العائلات التي حكمت وسطرت تاريخ فلورنس المسماة باللهجة الفيورنتينية فيرنزا.

وبدا لي وأنا أقرأ تاريخ هذه العائلة في كل مكان أن كل شيء قد هرب من آدم حتى أن هذه العائلة في نهاية تاريخها كانت كلها نساء، ولم يكن هناك آدم واحد ليستمر في حكم فلورنس، فسقطت العائلة في آخر ١٦٠٠.. ولكل زمان ومكان. يسيطر آدم فقد انتهت العائلة بسبب انتهاء إنجاب الذكور.. ولكن هل تنتهي حواء. فسواء هي من تنجب آدم. وتحتويه طفلًا وشابًا ورجلًا وصديقًا وحبيبًا وأبًا؟ هل تستحق حواء كل هذا العذاب؟

صافحتني بحرارة، وكلمات عربية مكسرة الأوصال، فلا تكاد تعرف لحرف الحاء أو العين مكانًا بين خليط من الكلمات الفرنسية والعربية أو الإنجليزية، وربما لغة أخرى لا أعرفها، وقد دق حرف الراء المعقوف إلى إلغاء أذني فابتسمت حينما أخبرتني باسمها العربي، والذي تحولت فيه الراء إلى «غ» فزادت جمالها جمالًا، وزادت أشعة

الشمس بياض بشرتها إلى أن أصبحت كوجهة القمر. فحواء كانت فقط ٤٠ عامًا؛ لونها الثلجي وشعرها الأبيض ليس إلا هدية من هدايا الله كما أخبرتني وهي تمزح:

«هل رأيت مسلمة عربية بلون شعري؟ أنا كتير مكسوف أدخل مسجد».

وكان الحق معها، ففي الداخل كانت كل النساء أفريقيات يحملن ميراث الأم السمراء، تندرج ألوانهن وعطورهن بل أسماؤهن وكأنك تتجول بالكاميرا من سحر إلى آخر من بلد إلى آخر كما تندمج الألوان في قوس قزح.. جلست وبجانبي حواء أمريكا الشمالية البيضاء بلون الثلج أنظر إلى ملف الصور أمامي.. هذه حواء الهاربة من جنة آدم الصومالي، أتت إلى إيطاليا تاركة أربعة أبناء في رعاية أمها.. وهذه حواء ذات العشرين عامًا السودانية الفارعة تتهادى ضفائرها الصناعية وراءها منادية أن من يعلق بها لن يتمكن من الخلاص، رائعة هي ابتسامتها، وهناك تجلس الأذبيكساتنية بلباس غريب مزركش بنقوش رائعة الجمال؛ تحمل عبق التاريخ كم من حواء حولي! إنهن كثيرات، جميلات، متنوعات، وبظلي الخفيف ابتسمتُ فابتسمن جميعًا، فقلت فورًا:

«هيا نلعب، لما لا نتبادل الأدوار وتحكي كل واحدة شيئًا عن نفسها وعن بلدها؛ فلكل منا قصة..».

ابتسم الجميع وقد راقت لهن اللعبة، وكانت حواء الثلجية تنظر إلي وعيونها الفيروزية تمطر دموعًا.. وسارعن جميعًا حولها لنفتح باب ندخل منه إلى الأعماق.

«كان لي بيت وزوج.. وأب وابن، هناك في وسط الطبيعة الخلابة كانت جنتي، وأذكر أنه في يوم اصطحبني أبي من ذراعي إلى الكنيسة الصغيرة في الحي الراقي؛ ليسلمني إلى آدم ذي الشعر الذهبي والعيون بلون السماء، أذكر أني كنت أطير بأجنحة ذهبية وردية؛ كانت الورود في كل مكان، والشموع لم تتأثر بالأجواء الباردة، ولا الثلوج التي تغطي صفحات الطريق، فكل شيء كما اعتدنا عليه إلا قلبي، فهو كان غريبًا لا يتوقف عن العمل بشدة لا يمهلني صوته العالي لكي أسمع تصفيق الأهل والأصدقاء، ولا حتى لأسمع كلمة راعي الكنيسة الذي يعقد الزواج، لم أشعر إلا بخاتم ماسي يلمع في إصبعي، وعيون تبتسم بالدموع من حولي، وكلمات كم أنت جميلة! كم أنتم رائعين أيها الزوجان! وأخذني آدم من يدي مهرولًا إلى سيارته التي لم أعرفها من كم الزهور البيضاء والصفراء، فقد كان يعرف عشقي للزهور الصفراء، وتساقط على ثوب زفافي الأبيض المائل إلى الصفار، حبات الأرز البيضاء كما اعتاد أهل بلدتي أن ينثروا الأرز الأبيض؛ رمز للخير والبركة فوق العروسين...».

بكت حواء. وبكى معها الجميع، وأدركت الموقف حواء المغربية، وكان معها إبريق مزركش يستعمله أهل المغرب عادة في طقوس الشاي، ووزعت الأكواب الصغيرة الملونة، وصمت الجميع على رائحة النعناع تتسلل بين القلوب الحزينة لتهدئ من روعها، وهدأت حواء البيضاء بياض الثلج، وابتسمت قائلة:

«حينما نفكر في الأحلام، فكل منا له مدة زمنية، بعضنا يحلم ٥ دقائق ويستمتع كما لو كان الحلم ٥ سنوات، وبعضنا يحلم سنوات وتمر

كالدقائق ولا يظل من الحلم إلا الذكرى التي تهز القلوب والعقول... أفقت من حلمي بعد ٥ سنوات كان كل شيء يبدو لي على ما يرام، كانت ضحكات طفلي تملأ المكان، يركض ويلعب مع الكلب الصغير الأبيض، فقد أهداه أبي لي منذ أن وُلد ابني حتى يكبروا معًا ويلعبوا معا، وقد كانت البهجة في كل مكان، وكان ابني شديد التعلق بكلبه الصغير، وكنت أنا قد أكملت دراستي الجامعية وحصلت على الماجستير في الكيمياء، وأعمل في مركز الأبحاث، وبدأ لي أن حلمي بلا نهاية لكن. فجأة لا أعرف كيف، لا أعرف لماذا! لا أعرف، استيقظت».

وأكملت كوب الشاي بهدوء...

«فقد أرسل لي آدم رسالة أن أعود مبكرة؛ لأنه يريد التحدث معي. وسألته هل الطفل بخير. فأجابني نعم إنه عند جده فابتسمت واطمأن قلبي.. في الطريق وكعادتي دخلت إلى حانة الحلوى، واشتريت الخبز الساخن المحشو بالكريمة اللذيذة. فهو يحبها، وقالب من الشيكولاتة اللذيذة لابني ولم أنس بوبي الصغير.. وفي الطريق وكالعادة أهداني جاري وزوجته المسنان بعضًا من الزهور الصفراء من حديقته فهو يعلم حبي للزهور وخاصة الصفراء.. وجدت الباب مفتوحًا، وحقيبة كبيرة بجانبه.. هل يمكن أن يكون أتى عمي.. عمتي.. من؟ ربما من أهل زوجي.. دخلت وكلي فضول فرأيت آدم واقفًا يشرب سيجارة ويبدو عصبيًا جدًّا، يهرب من نظراتي ولم ينظر إلى الزهور الصفراء، ولم يمازحني كالعادة بأن الحلوى ستجعلني سمينة مثل جارتي التي أهدتني الزهور.. قبلته وكان لوحًا من الجليد تسعى فيه الحياة ببطء.. ماذا؟ ماذا حدث؟ بالله عليك تحدث صمتك يقتلني..

كلمات مسمومة شقت أذني وكأن وجهي الأبيض مغرق في الدماء، وأزهاري الصفراء لهيب أحمر يحرق كل شيء.. جملة صغيرة فقط «لدي حبيبة أخرى.. لا أستطيع العيش بدونها.. لا أستطيع أن أستمر في خداعك.. أنت لا تستحقين أن أخدعك.. تركت لك كل شيء؛ البيت، الطفل، كارت البنك، السيارة، كوني سعيدة، ستكونين أفضل بدوني». صرخت ولم تخرج صرخات، استغثت استعطفت رجولته، رجوته أن يوقظني من هذا الكابوس، أنا أحلم أخبرني اصفعني حتى أصحو، ضربت رأسي في الحائط حتى أصحو، لم أر شيئًا غير شبح يتسلل من أمامي.. وحقيبة سوداء تختفي من أمام الباب، وأفقت في سرير المستشفى الأبيض فقد جاء جاري العجوز وزوجته وحملاني – لا أعرف كيف – إلى المشفى لأجد أبي بجانبي وبعض الزهور الصفراء، وتحسست رأسي عليها ضمادة بيضاء.. يا الله، أيقظني أريد حلمي، لا أريد هذه الحقيقة من أي أبواب العالم دخلت، ليست هذه جنتي، ولا أحلامي، ولا هذه زهوري، لا أريد أن أراها وطلبت من أبي أن يلقيها في سلة المهملات، لا أستطيع رؤيتها، وأكملت حواء كوب الشاي قائلة والآن... لو هناك إمكانية إرسال بطاقة إلى آدم فأرسل إليه زهرة صفراء وبطاقة شكر. نعم! أشكرك؛ أشكرك من كل قلبي آدم الراحل، أشكرك؛ لأنك انتزعتني من عالم وهمي لا وجود له... أشكرك لأنك علمتني أن أكون قوية، أشكرك لأنك تركت لي الحيز لأحب نفسي، لأحب حياتي، لأحب ابني، لأحب ما أنا عليه بدونك، فقد كنت كل شيء إلى أن تلاشى كل شيء، لم أكن أرى شيئًا وأنت معي ملكي، والآن رأيت كل شيء، عرفت كل شيء.. لو لم تفتح لي أنت أبواب الحياة لعشت دائمًا خائفة خلف بابك، والآن لا أعرف الخوف، فحينما

أغلقت بابك في وجهي فتحت لنفسي ألف باب، وها أنا الآن، أكملت دراستي، وحصلت على الدكتوراه في الكيمياء، ها أنا الآن أقرأ وأفكر، واعتنقت دينًا جديدًا وجدت فيه حريتي.. ها أنا الآن أطوف البلاد من شرقها لغربها، الآن وبعد عشر سنوات على رحيلك قضيت منها ثلاث سنوات في الصحراء الأمازيغية التي حولت لوني الثلجي إلى لون القمح المخدر كالنبيذ العتيق.. ها أنا وأطير في كل مكان أشكرك؛ لأنك لم تدعني بل كنت صادقًا حينما أخبرتني أني أفضل بدونك، أما أنت فمسكين ستظل سجين من جسد إلى آخر؛ لأنك تريد الجسد، ومن يبحث في الأنثى عن جسد فلن تكفيه كل النساء.. أشكرك..».

وبينما الجميع في صمت رهيب إذا بصوت المؤذن في المركز الإسلامي يؤذن للصلاة، وانتقلنا جميعًا من باب الأحلام إلى باب الإيمان نسبح بين يدي الله في صلاة طويلة.. صلاة حواء.

* * *